التشبيه في شعر السيد محمد سعيدالحبوبي

(دراسة تطبيقية)

م.د. عباس كاظم امنسف

المديرية العامة للإعداد والتدريب والتطوير التربوي

Abbaskm655@yahoo.com

الملخص

يهدف هذا البحث الى التعرف على أُسلوب التشبيه لدى الشاعر محمد سعيد الحبوبي؛ بوصف التشبيه فنا بيانيا مهما يساعد في رسم الصورة الشعرية ويضفي عليها ابعاداً فنية تزيد من قوة التأثير في المتلقي، وقد تناوله البلاغيون بحثاً ودراسة وبينوا انواعه وقلبوّا الرأيّ فيه على انواعه كافة، وهو في جوهره لا يخرج عن ((الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أَوصاف الشيء نفسه كالشجاعة في الأَسد والنور في الشمس ، وهو ركن من أركان البلاغة، لأخراجه الخفي إلى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب)).

ويعدّ الشاعر السيد محمد سعيد الحبوبي من الشعراء الذين كانت لهم بصمةٌ واضحةٌ في القرن التاسع عشر الميلادي؛ بما اتصف به شعرهُ من عمق في الدلالة وتصوير فني جميل سواء أكان في قصائده أَم في موشحاته؛ وهذا ما جعلنا نهتم بشعره ، وندرسهُ في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: التشبيه ، في شعر ، محمد سعيد الحبوبي

Abstract

This research aims to identify the style of analogy with the poet Mohammed Saeed AL-Habboubi, as simile is an important graphic art that contributes to the drawing of the poetic image and imparts to it artistic trappings that increase the power of the effect on the recipient. The dealt with research and study, and built their types and turned the opinion. The poet Mohamed Said AL-Habboubi was one of the poets who had left a print in the nineteenth century, including character of his poems from the depth in its meaning and portrayal of a beautiful weather in his poems or in oratorios. Thus, simile was one of poetic forms of art imagination and this leads us to lead with his poems.

Key words Simile . In poetry .Mohammed Saeed AL-Habboub

المقدمـــــــــة

الحبوبي هو محمد سعيد بن قاسم ، ولد في مدينة النجف الاشرف عام ١٨٤٩م من اسرة عربية، علوية، حسنية (لا حسينية) واصلها من الحجاز.(الحبوبي،١٩٨٢: ٢١)

وقد أَعلن الجهاد ضد الانكليز عام ١٩١٤ وقاد جيشاً لقتالهم فأصيب في مدينة الناصرية وتوفي هناك سنة ١٩١٥م، ودُفِن في مدينة النجف الاشرف.(الحبوبي : ١٩٨٢ : ٢٤ ،:٢٣-٢٤)

وقد أَمضى الحبوبي طفولته تحت رعاية أَبيه، وحين بلغ سن التعلم بدأ بتعلم القراءة والكتابة والخط، وبدأ بالقرآن الكريم على عادة اهل زمانه.(الحبوبي : ١٩٨٢:٢٥ ،:٢٤-٢٥)

وسنحاول في أثناء هذا البحث التطرق الى شاعرية السيد الحبوبي لما لها من علاقة بدراسة أَسلوب التشبيه لديه ومن ثم نسلط الضوء على أسلوب التشبيه في شعر السيد محمد سعيد الحبوبي؛ دراسة تطبيقية، وسيكون منهجنا في هذا البحث؛ اختيار أبرز أمثلتهِ في التشبيه، في قصائده وموشحاته.

شاعرية الحبوبي

يعدّ السيد محمد سعيد الحبوبي شاعراً ((امتلك زمام الشعر حتى تصدر معاصريه ـ وجلهم من فحول الشعراء ـ بما أبدع من شعر رائق رائع ، فأحيا بموشحاته التي أتت على موشحات القدامى والمعاصرين ما كان قد اندثر منها، ونزه شعره من مرذول القول، وذل التملق)). (الحبوبي،١٩٨٢ :٦٢)

ومن أوائل الدراسات التي تحدثت عن الشاعر الحبوبي، دراسة الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر)؛ إذ افتتح مقالاته الأدبية والنقدية بالحديث عن هذا الشاعر؛ مما يدل على إهتمام الدكتور البصير به فجعله في مقدمة الشعراء، وغالبا ما يعقد البصير موازنة بين الشاعر السيد الحبوبي وغيره من الشعراء، وأبرزها تلك الموازنة التي عقدها بينه وبين الشريف الرضي، إذ يقول: ((كلاهما شاعر فحل ، وكلاهما طريف الغزل عفيفه الى حد بعيد، وكلاهما مترفع عن التكسب بالشعر ترفعاً تاماً، وكلاهما صاحب فقه وصلاح وورع، وكلاهما موفور الجاه والحظ .....)).(البصير،١٩٩٥: ١٥) ممّا يعزز ما أشرنا إليه من كلام قبل ذلك آنفاً.

وعند قراءة ديوان الحبوبي يتضح لنا أنّ الخيال عند الشاعر واسع رحب؛ وظفهُ لإقامة تكوين جديد لأسلوب التشبيه؛ إذ تذوب فيه الفواصل بين المشبه والمشبه به، وقد تمكّن السيد الحبوبي أن يركّب ويوحد بين الأشياء ويتفنن بأسلوب التشبيه لتصل الصورة الى صياغة متقنة ((فقد ولد شاعراً ثم تهيأت له ظروف تعهدت شاعريتهُ المبكرة بالرعاية ومكنته من الشعر)). (البصير ،١٩٩٥ :٦٤)

وهذا ما سنحاول القاء الضوء عليه في الصفحات اللاحقة من دراسة أسلوب التشبيه في شعر محمد سعيد الحبوبي؛ دراسة تطبيقية.

التشبيه في شعر محمد سعيد الحبوبي

يُعدّ أسلوب التشبيه من وسائل التصوير الفني في علم البيان، وقد تناولهُ البلاغيون بحثاً ودراسة، وبينوا أنواعه كافة، ونحن ليس بصدد الحديث عن وجوهه، ويمكن الرجوع الى كثير من المصادر والمراجع التي تصدت له واشبعتهُ قولاً ودراسة.(١)، وخلاصة القول فيه؛ فالتشبيه لغة: ((التمثيل، وهو مصدر مشتق من الفعل ((شبّه)) بتضعيف الباء، يقال: شبهت هذا بهذا، اي مثلتهُ به)) .(عتيق،١٩٨٥: ٦١)

اما في آصطلاح البلاغيين فله أكثر من تعريف؛ "وهذه التعاريف وإنْ اختلفت لفظاً فإنها متفقةً معنى "، ولعل أبرزها قول الخطيب القزويني:((التشبيه:هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى)).(القزويني،٧٣٩ه، ج٢: ٢١٦)

أمّا عند الحديث عن التشبيه في شعر الحبوبي فإن الشاعر استطاع أنْ يمزج بين الخيال والفكر والعاطفة مزجاً موفقا فقد ((ردّ لهُ رواء الشعر العربي القديم وعذوبته وصفاءه، وأطلق فيه من خيال مبدع خلاّق، وبثّ من حرارة العاطفة، وانتقى له من الألفاظ كل ذي إيحاء ورنين وموسيقى حتى جاءت ألفاظهُ متسّقةً مع معانيه. (الحبوبي،١٩٨٢ :٦٢)

ولعلّ من لطائف التشبيه في شعر الحبوبي قولهُ:

قد رقى مِنبرَ بانَ واعتلى في مُروجٍ (كمروج الذهب)

وتتجلى في هذا البيت من الموشح براعة الحبوبي في تكوين صورة تشبيهية بين ممدوحه وشجر البان المعروف باعتدال قامته ثم أضفى على ذلك صورة جميلة مستعملاً لوناً من الوان البديع ألا وهي "التورية" في عبارة ((كمروج الذهب))؛ قاصداً بها مروج الذهب للمسعودي ، ويستمر في رسم صورته بقوله: (الحبوبي،١٩٨٢ :١٥٧-١٥٩)

فكأنّ الماء لما غُيضا (قيل يا ارض ابلعي) ثم اكتسي

فقد بنى الشاعر أسلوب تشبيهه على فن آخر من فنون البديع في البلاغة وهو "الاقتباس" من القرآن الكريم (٢)، وهذا بطبيعة الحال يدلُّ على مقدرته وثقافته الدينية.

وفي صورة تشبيه يتداخل فيها اسلوب التشبيه مع الاستعارة المكنية يقول الشاعر : (الحبوبي١٩٨٢:٥٧

والثريا مثلُ كَفٍ بِضنّــةٍ للدُجى أومتْ فلباها الغسقْ

أو كنعقودٍ بدا من فضـةٍ قد جلاهُ الأُفقُ ، فالأُفقُ طبقْ

وسهيلٌ خدُ خودٍ غضــةٍ لُثمتْ ، فآحمر منها وخَفقْ

أو كقلب بالمِــلاحِ افتتنا فهو خفاقٌ ، كـثيرُ الوهجِ

بات ينزو مستطيراً ، شَجَنا إذ أتى الليل بظـلٍ سجسجٍ (٣)

هذه الصورة للطبيعة الأخاذة ؛ فقد بدأ الشاعر برسم ملامحها ، طبيعة النجوم في السماء معتمداً على وسيلة التشبيه "مثَل" لتزيد من التجانس والتوحد بين المشبه والمشبه به؛ فالثريا مثل الكف البيضاء الرقيقة ثم أضفى على صورته ملامح تشبيه آخر عن طريق الأداة " الكاف "، ويستمر في تعزيز الصورة بتشبيه بليغ اعتمد فيه على الاستعارة المكنية ((لثمت ، فأحمر منها وخفق))؛ وهنا يتضح أنّ التشبيه عند السيد الحبوبي أسلوب مهم تكتمل عن طريقه ملامح صورته بتناسقها مع الاستعارة .

وفي تشبيه للقوام الجميل يقول (الحبوبي،١٩٨٢:١٦٤) :

في قدود كأنابيب القنا بسوى الإدلال لم تنعـوجِ

كم رأى من جاء ذاك الظعنا بدرَ تَمٍ مشرقٍ في هودجِ

فالقدود تشبه الرماح بقوامها الجميل وهي بدر كامل مشرق بضيائه وألَقه . وغالباً ما نجد كثيراً من التشبيهات التي تعتمد على أداة التشبيه (الكاف) في شعر الحبوبي ، ولاسيما في موشحاته (٤)؛ وبحسب رأينا المتواضع نرى أنّ هذه الأداة أو حرف (الكاف) تزيد من قوة أسلوب التشبيه وتُعزز من آصرة المشبه بالمشبه به ، من ذلك قولهُ: (الحبوبي،١٩٨٢: ١٨٢)

جذوةٌ شبّت فعادت لهبا كشهابٍ بيدي مقتـبسِ

فأنا من فوق أعلام الرُبـى عَلمُ (الخنساء) للمُختلس

إنّها لجمرةٌ قد شبت فأصبحت شعلةَ نار ساطعة، ومما زاد التشبيه جمالاً وتأثيراً إنّ الشاعر قد قرن ذلك بصورة تشبيهية أخرى؛ قوامها تشبيه بليغ، إذْ شبّه نفسه بالجبل، وأيُّ جبل؛ إنه عَلم " الخنساء" الذي يهدي الضال في عُتمة الليل(٥) .

وفي صور أُخرى من قصائدَ كثيرة نجد أنّ الشاعر السيد الحبوبي قد سار على نهج الأقدمين في توظيف الخمرة في مقدمة قصائده؛ مستفيداً من أسلوب التشبيه في رسم لوحاته، إذْ يقول: (الحبوبي،١٩٨٢ :١٨٢)

خمرةٌ فاحَ شذاها بعدما فضح الأرجاءَ ، بل أَرّجَها

هي من نار ، ولكنْ كلما نضحَ الماءُ بها أَجّجهـا

وحبابُ الماء فيها انتظما كثغورٍ جل مَنْ فلّجهـا

وبَدَتْ فيها لآل تُجتلــى ما حكتهُنَ لآل الصــدفِ

إنها لصورة جميلة أسهم في بنائها أكثرُ من فن بلاغي؛ فنجد الجناس (الارجاء، أرجها)، والاستعارة المكنية (فضح الأرجاء) ، والتشبيه بالأداة أو حرف (الكاف)؛ مما أكسب الصورة عمقاً ودلالةً وجمالاً؛ فحباب الماء يشبه الأسنان المتباعدة وهي صفة مستحسنة عند العرب ثم قرن ذلك بتشبيهها باللآلىء؛ ولذلك فقد أجاد الحبوبي في موشحاته ووظفها توظيفاً حسناً فهي ((تتصف برقة وعفوية واخيلة بدوية، وشاعرية تكاد تكون غريبةً في موجة التقليد العارمة في القرن التاسع عشر. (الخياط ،١٩٨٧: ٢٣)

ومن تشبيهاته الجميلة قوله: (الحبوبي،١٩٨٢: ٢٤٧)

همزّها الدّلُ فماست مرحـا كقناةٍ في يدي مرتعشِ

فقد شبه فتاة(جارية) بالرمح الذي يهتز ويتمايل في يد الخائف الجبان؛ فكأنّ الدلال قد هزها وجعلها تتمايل كالرمح من حيث رشاقة القوام، وهو تشبيه طريف وجميل لأن ((التشبيه من أصول التصوير البياني، ومصادر التعبير الفني ، ففيه تتكامل الصور وتتدافع المشاهد)) .(الصغير،١٩٨٦ :٦٤)

ومن موشحة أخرى، له تشبيهٌ يقول فيه :

وغَدا منتفضاً لما صحا كانتفاضِ الطائرِ المُرتعشِ (الحبوبي،١٩٨٢: ٢٥٣)

فهذا الرجل حين يصحو من تأثير الخمرة فإنّه ينتفض مثل الطائر المرتعش؛ لاشك إنّه أسلوب تشبيه استخدمه الشعراء القدامى(٦) إلاّ أنّ الشاعر الحبوبي قد أضفى عليه مِسحةً من التأثير وذلك عن طريق التشبيه بالطائر المرتعش من جرّاء حدث مخيف مفاجئ تعرض له؛ فهو مثله في ذلك مثل الذي يصحو من تأثير الخمر إذْ يُصاب بالارتعاش المفاجئ، ولرُبَ سائل قد يسأل:هل إنّ السيد الحبوبي((قد عاقر الخمر زمنا فعرف أسرارها وحقائقها ــ ما ظهر منها وما بطن ــ إذ جاءَ وصفه لها عن خبرة وتجربة)) (الحبوبي،١٩٨٢،ص١٠٢)، ولكي نتحقق من الإجابة الشافية عن ذلك نجد أنّ الشاعر الحبوبي قد نفى عن نفسه تهمة معاقرة الخمرة جملةً وتفصيلاً عن طريق كثير من الأبيات التي نجدها في ديوانه، فعلى سبيل المثال قوله(الحبوبي ١٩٨٢:١٩٦):

لا تَخَلْ ، ويكَ ، ومن يسمع يخلْ أنني بالراح مشغوفُ الفــاد

وقوله: لستُ للراح صاحباً ورفيقا فدع الكاسَ، لا تُدرْ لي رحيقا

(نفس المصدر السابق، ج٢ :٣٨٤)

ويبدو أن الحبوبي ((بعد ان بلغ في نعت الخمرة هذا المبلغ العظيم، قد فطن الى أن تهمة معاقرتها ستلصق به، فبادر الى دفع التهمة عن نفسه في مواضع متعددة من شعره))؛ (الحبوبي،١٩٨٢: ١٠٢) وقد سقتُ هذين المثالين لنفيه تهمة معاقرة الخمرة، وفي الديوان أمثلةٌ كثيرة على هذا النفي(٧)؛ مما يعني أن السيد الحبوبي قد سار على نهج الأقدمين (تقليداً ومحاكاةً لخمريات الشعر العربي، فقد أصبح وصف الخمر فناً شعرياً كبقية الفنون الشعرية).

وهناك أسباب أُخرى نجدها لتسويغ وصف الخمر عند الشاعر الحبوبي ؛ ذكرها عبد الغفار الحبوبي صاحب الإعداد والدراسة للديوان لا مجال لذكرها في البحث هذا .(٨)

أمّا الدكتور جلال الخياط فيذكر بهذا الصدد: ((وإذا ما ذهبنا الى أنّ الحبوبي لم يشرب الخمر ولم ينادم الحسان وإنما نظم عشرات القصائد في وصف الخمر ومجالسها متخيلاً ذلك ادركنا مدى سطوة التقليد ومحاكاة الاقدمين على شعر وشعراء القرن التاسع عشر عامة)). (الخياط ،١٩٨٧: ٢٤)

ومن تشبيهات الحبوبي الجميلة وإن كانت لا تخلو من التقليد، قوله:

كأنَ حدوجهمْ في الارضِ سفنٌ وجاري أدمعي بحرٌ محيطُ (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢ :٣٩٠)

وهي صورة لا يتردد أحدٌ في الحكم على براعتها أو أصالتها؛ إذْ شبّه الضعائن بالسفن من حيث العلو والوضوح .

وفي مناسبةً أُخرى يقول :

من كلِّ أوطفَ ما تغنى رعــدهُ إلاّ وأرخص بالدموعِ شؤونَهْ

فترى الدموعَ تخالها بحراً طمي وترى الحمولة تخالهنَّ سفينه (الحبوبي ١٩٨٢: ٤٤٩)

فالحبوبي في هذين البيتين استطاع أنْ يرسم صورةً جميلةً باعتماده على أسلوب التشبيه في بناء صورته ؛ وإن كانت لاتخرج عن صورة الشعراء الأقدمين ، فأختياره للألفاظ كان موفقاً: أوطف وهي السحابة الممتلئة بالماء، الشؤون: وهو العرق الذي تجري منه الدموع .

وما يزال الحبوبي يسير على نهج الاقدمين في وصفه لآثار الديار وما تتركه في النفس من الِمٍ وحسرةٍ، إذ يقول :

يطلبُ الرسمَ فلا يعرفهُ كهلالِ الشــكِ يبدو ويـــــزول

أترى دارهمُ قد وجدتْ وَجْدَ مَنْ يهوى فأخفاها النحول (الحبوبي ١٩٨٢، ج :٢ ٣٠٧)

فقد تداخل طرفا التشبيه في صورةً جعلت اجزاءها تتماسك في بناء فني جميل ((فالنص الادبي الممتاز لا يقصد الى التشبيه بوصفه تشبيهاً فحسب، بل بوصفه حاجةً فنيةً تُبنى عليها ضرورة الصياغة والتركيب.(الصغير،١٩٨٦: ٦٤)

أما عندما نتمعن في هذين البيتين وغيرهما من الأبيات التي أشرنا إليها سابقاً فنجد ((أن الحبوبي قد تأثر تأثراً كبيراً بالبادية حتى غلبت على شعره)) . (الحبوبي،١٩٨٢ :٧٦)

ومن تشبيهاته للطبيعة قوله :

تَخالُ النجومَ حُبابَ الميـاه فترنو إليها سواهي الحَـدَقْ

ولو وجدتْ مصعداً لارتوتْ على بعدها من دماء الشّفقْ (نفس المصدر السابق، ج٢: ٣٠٧)

فالحبوبي هنا اعتمد على فعل التشبيه "تخال" فرسم لوحةً لإبل متعبة، هزيلة، وعطشى؛ فتثير فينا الاشفاق على هذهِ المطايا التي بلغ فيها العطش مبلغاً بحيثُ حسبت ((النجوم حباب الماء فراحت تنظر اليها بعيون ساهية))؛ (الحبوبي ١٩٨٢: ص٩٣) وما أدرانا بما قصده الشاعر برسمه لهذه اللوحة التي لاتخلو من الجمال والدلالة، وهكذا أدى أسلوب التشبيه فيها دوراً فاعلاً وكان له أثر طيب.

وعندما يعتمد الشاعر على التصوير الاستعاري الذي يأتي مقترناً بأسلوب التشبيه فإن الصورةَ تكون ذات نكهةٍ خاصة ، على نحو قوله :

كأنَّ الأُقحوانةَ قَبّلَتْها بمبسَمها ، فأبقتْ فيه شكلا (الحبوبي ١٩٨٢، ج٢: ٣٣٠)

إنها صورةٌ استلهمها الشاعر الحبوبي من التراث الشعري الجميل وجعل مكوناتها ذات دلالة فنية تعتمدُ على الاستعارة المكنية (قبلتها،مبسمها)؛ فوجود الاستعارة مع التشبيه وانصهارهما في بودقة واحدة أضفى على الصورة جمالاً وتأثيراً في النفس ؛ وهنا تكمن قيمة الصورة الشعرية لأنها ((لابد أن تُعبِر عن إحساس الناس بالأشياء)) . (النويهي،١٩٦٧: ١١٥)

وهذا تشبيه طريف آخر اعتمد فيه الشاعر على الاداة "كأنّ" إذ يقول :

كأنّ الصُّبحَ سيفٌ في جفيرٍ تقلّدهُ الجبانُ فَلنْ يُسَلّا (الحبوبي،١٩٨٢: ٣٣١)

وهنا يَصف الحبوبي انتظاره للصبح ومعاناتهُ من الليل الطويل؛ فشبه ذلك بالسيف في الجعبة الذي لن يسله الشخص الجبان المتردد او يخرجه من جعبته او غمده؛ فهو تشبيه جميل فيه صورة ودلالة وهدف ؛ فغاية الشاعر رسم الصورة بدلالة عميقة وهدف مقصود على الرغم من أن السيد الحبوبي لم يتجاوز في ذلك الشعراء القدامى بهذا التصوير ولم يتخطاهم .

ومن صور التشبيه التي تنمُّ على حسّ دقيق وتخيل يمتزج بالإدراك امتزاجاً جميلاً؛ قول الحبوبي:

مضى زمنُ الوصالِ ، وكان وافى كظلِّ غمامةٍ ، ثم اضمحلا

فهو يشبه زمن الوصال الذي مضى بظل الغمامة الذي لايمكث ثم يتلاشى شيئا فشيئا؛ وهو أسلوب تشبيهي جميل تداخلت فيه مكونات الصورة التشبيهية النابعة من الوجدان لتضفي بعداً انسانياً مؤثراً على ملامح صورته، ثم يستكمل هذه الصورة بإضافة تشبيه آخر عبرَ اداة التشبيه " الكاف"، اذ يقول :

ولي بك حاجةٌ ، فقف انتظرني مكوث البُرد ـ عُمرَك ـ أو أَقلا (الحبوبي ١٩٨٢، ج٢: ٣٣١)

فما أجمله من تشبيه عندما شبه ، لف الكساء بزمن الانتظار؛ فقد تداخل التشبيه مع الكناية عن الزمن القصير؛ وهنا تكاملت صورته بأسلوب بياني جميل .

وفي صورة لاتخلو من الحزن والتشاؤم يقول الحبوبي :

وكأن الحمـــام أغربةُ البين أَخـــالُ الهديل منها نعيبا

ضيّق الدهرُ في مجاليَ حتى بالأَمانيَّ لم يكن لي مُثيباً (الحبوبي ١٩٨٢، ج٢: ٤١٦)

وهنا استعمل الشاعر أداة التشبيه "كأن" وعززها بالفعل "أَخالُ" لاستكمال بناء صورته ؛ ونرى أن في هذه الصورة مفارقةً مؤثرةً ذات أسلوب تشبيهي مُركّب قد عوّل عليها الشاعر وهو يرسم لنا الصورة؛ فالحمامُ كغراب البين، وهديله مثلُ النعيب في أوقات الحزن؛ انها لصورة مؤثرة لوّنها بألوان الحزن والتشاؤم؛ وهذه الصورة تُحسَب لشاعرية السيد الحبوبي؛ وعليه فإن الصورة (تجسيد للتجربة أو اللحظة الشعورية التي يعانيها الفنان، ومن الطبيعي أن تسيطر التجربة على كلماته وعباراته وموسيقاه وصوره).(العشماوي،١٩٦٧: ١١١)

وللخمرة صورٌ كثيرة في شعر الحبوبي ((فمن يقرأ خمريات الحبوبي يُبهَر بها، إذْ هي من الروعة، والجودة بحيث تسحر القارئ، وهي من الكثرة، والوفرة بحيث نجدها في ثنايا أغراضه الشعرية باستثناء الرثاء))؛ (الحبوبي،١٩٨٢: ٣٣١)

فمن ذلك قوله :

كأنَّ حُبابها أطفالُ دُرٍّ ترقصُ فوق مهدٍ من سعيرِ (الحبوبي ١٩٨٢، ج٢: ٢٦٨)

ما أجملها من صورة تلك التي قوامها؛ اطفالٌ من دُرّ ترقصُ فوق مهد من نار؛ فوجه الشبه بينهما البياض ولهب النار الاحمر؛ وهنا كان لحرف التشبيه "كأن" دور بارز في بناء صورته التشبيه؛ فقيمتها الفنية في الشعر تنبع من أنها ((لبنة من لبناته ، لا أداة فقط من أدوات التعبير)) . (أبو علي، ١٩٨٣: ٢٥٥)

ومن تشبيهاته الاخرى للخمرة قوله :

كالشمس تعبث في النادي اشعتُها إذْ لاح من وَجنة الساقي ، لها شَفَقُ (الحبوبي ١٩٨٢ السابق، ج٢: ٤٠٢)

فقد تداخل أسلوب التشبيه مع الاستعارة المكنية في بناء الصورة؛ فالخمرة كالشمس أما أشعتها فهي تعبث في المكان، إذ تنعكس على وجنة من يسقيها مثل الشفق في السماء من حيث الحمرة عند مغيب الشمس ((فالصورةُ التشبيهية ليست لقطة جزئية لمشبه ومشبه به، وإنما تتلبس في كينونة خيالية تولد صوراً متتابعة ينمو بعضها عن طريق البعض الآخر، وتتحول أداة التشبيه من مجرد مشجب يعلق عليه طرفا التشبيه لتصبح مدخلا فقط لصورة فسيحة لمسرح الحركة الخيالية)). (عيد ، د.ت،: ١٩٠)

وفي صورة أُخرى يشبه الشاعر الخمرة بالياقوت الأحمر، إذ يقول :

فإنّ الراحَ يــاقوتٌ أُذيبتْ بالأباريــقِ

كمثل الشمسِ يجلوها غزالٌ باردُ الريــقِ

عروساً زفّها الساقـي لنا من بعد تصفيقِ

بَدَتْ مابينَ أتـرابٍ كأمثالِ العرانيــقِ (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٤٠٢)

فأي شيء ننتظرُ سوى هذه الصورة التي حاول عن طريقها الشاعر الحبوبي أنْ يوظف الفن البياني بأسوبي التشبيه والاستعارة ليستكمل ملامحَ بناء صورته؛ فالخمرةُ مثلُ الياقوتِ من حيث الحمرة والصفاء ومثل الشمس من حيث البريق ويتناقلها غلام كالغزال من حيث الخفة والرشاقة؛ مستعملاً كلمة "العرانيق" للشاب الجميل، وفضلاً على ذلك فالصورة لا تخلو من التورية في كلمة "تصفيق" التي قصد بها معنى بعيداً ألا وهو "تحويل الشراب من إناء الى آخر"، فإنّ ((القيمة التصويرية تنبعث من العمل الفني، عندما يركز الفنان جهده لجعل طابع الشيء المتميز الذي أثاره واضحاً ومفصحاً عنه)) . (جنتكر،ت: محمود، ١٩٦٣: ٢٩٣)

وللشاعر الحبوبي صور تشبهية تعتمد على الحكمة والنُّصح، من ذلك قولهُ) :

وماضي الليالي كأنْ لمْ يكنْ ومَقْبَلُها مثلُ ما قد مضى

فلا تكُ منها على غرّة فما هي إلاّ كبرقٍ أَضا (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٤٠٢)

فالصورة واضحة اعتمد فيها الشاعر على النصح والإرشاد، ولابد للإنسان أنْ يكون يقظاً ومتحوطاً من الحياة التي لا تدوم لكي لا يؤخذ على حين غرة .

وعندما يصف فتاةً جميلة لا ينقصها شيء فإن صورته تكون :

هي روضُ الجمال يرتادُها الطَّــر فُ اختلاساً ، وتمنع الكفَّ قطفا

مبسماً واضحاً ، ووجهاً أَغراً وحَشا مخطفاً ، وزنداً ألفّــا

وثنايـــا كأنهنّ لآلىءٌ نسّقتْها نســاقةَ الغيد رصفا

هي أحلى من الرحيق إذا ما خلطوها بالزنجبيل ألمصفّى

وجفوناً اودى بها السَّقمُ حتى كـدنّ يحكيننـي سقاماً وضَعفــاً (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٣٤٠)

وبعيداً عن الغرض الأساس لهذه القصيدة (٩)؛ فلننظر الى جمال التصوير ورقة الألفاظ وجزالتها ؛ فقد اكتملت أجزاءُ صورته بعد أن اعتمد على التشبيه البليغ والأداة "كأن" في بنائها مع عدم إغفال دور الاستعارة المكنية لتسهم في أضفاء الدلالة الجمالية المطلوبة؛ هكذا هو السيد الحبوبي كما يصفه الدكتور محمد مهدي البصير بقوله: ((الحبوبي الشاعر هو غيرهُ رجل الدين المتقشف، والحبوبي الشاب غير الحبوبي الشيخ الكهل)) ؛ (البصير، ١٩٥٩: ٢٣)

قاصداً في ذلك حبَّهُ للحياة وما فيها من جمال وبهاء .

وللشاعر الحبوبي أسلوب رقيق في بناء صوره ولاسيّما في وصفه وغزله ؛ويتضح ذلك جلياً في قوله:

خطرت ، فجد وشاحها بخفــوق فكأنَّها اتشحت بقلب مَشوق

وعلى الدلال تماسكتْ، فتلاعبتْ كَفُّ النسيم بقدّها الممشوق (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٣١٩)

فقد وظّف اسلوب التشبيه وعزّزهُ بأسلوب الاستعارة المكنية؛ ليجعل من صورته الشعرية أخاذة وممتعة بعد أن استعمل " بحر الكامل" استعمالاً موفقاً في استكمال مابدأهُ بألفاظ رقيقة وجرس موسيقي سَلس . إذن ؛ هذا هو الحبوبي عندما يتغزل ويحبُّ؛ فالحبُّ يعني لهُ :

والحبُّ ـ من دون البرية كُلهّا ـ ديني الذي وشجت عليه عروقي

إنها الحياة لا تكتمل سعادتهــا إلا بالمحبة وصفاء القــلوب. (الحبوبي ١٩٨٢،ج٢: ٣٢٠)

أما أذا ما ذهبنا إلى الرثاء في شعر الحبوبي واعتماده على أسلوب التشبيه في ذلك فإننا نجده لايقل أهمية عن غيره من الأغراض التي تناولها الشاعر، من ذلك قوله :

ومن (كمحمد) مرتادُ حمدٍ يمت إليهِ بالعُرفِ اصطناعا

بكفٍ كاليراعِ ترى قنــاها وتبلغ في يراعتها ، القراعا

كأن يراعها كانت قنــاةً ، وإنّ قناتها أضحتْ يراعــا

كأنَّ بنانها أخلافُ ضرعٍ يديمُ فم الغمامِ لها ارتضاعا (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٤٥٠)

وكما هو واضح فقد أشترك أسلوب التشبيه مع الاستعارة والجناس في بناء هذه الصورة مع ملاءمة بحر "الوافر" لهذا الغرض في هذه المناسبة من الرثاء؛ (الحبوبي ١٩٨٢،ج٢: ٤٥٨)

لما لهذا البحر من توافق وحرية في الانتقال بين الأساليب وتناغم الألفاظ وسلاستها .

وفي رثاء السيد حيدر الحلي عام ١٨٨٦م يقول :

كأنَّ رواسي الهضب أجنحة القطا عليك لمّا ألزمتها الخفقانا (الحبوبي ١٩٨٢،ج٢: ٤٦٦)

كأنَّ مجاري الدمع اوديةُ الحيا تديم عليك الوكف والهملانا

وهو في هذا الرثاء كان تقليديا لم يتجاوز ما سار عليه الشعراء القدامى ؛ بل كان مبالغاً في رثائه باستعمالهِ"رواسي الهضب" و"اجنحة القطا" و"مجاري الدمع" و"اودية الحيا" ؛ وقد يكون المبرر لتلك المبالغة من أنه أراد أن يُضفي على مَنْ رثاه؛ صفات التقدير والعنايه والاحترام، ليس إلاّ .

وفي رثاء آخر لايخلو من المبالغة قوله :

وأذرفُ من جفني القريح مدامعاً تصوب كصوبِ المعصراتِ الهواطلِ (نفس المصدر السابق،ج٢: ٥٢٧)

ولانرى في ذلك سوى إحساسه بالمرارة والألم والحزن إذ وظّف حرف "الكاف" في التعبير عن ذلك الحزن؛ فمدامعه تنهمرُ مثل السحائب الماطرة .

ومن مشاركاتهِ الجميلة التي تقوم على المدح قولهُ :

أعيت أياديكَ الورى عـدةٌ كالشُّهبِ إلاّ أنّ منها البحارْ

كأنّ من نيلِك صوب الحيا لو أنه من فضةٍ أو نضــارْ

وأنت قطبٌ والمعالي رحىً فلم يكن إلاّ عليك المـــــدارْ(الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٤٩٣)

فقد شبه ممدوحه وعطاياه الكثيرة بالشهب والبحار وهو المطر؛ لكثرته فهو لايعد ولا يحصى؛ والشاعر في ذلك قد اعتمد على اسلوب التشبيه كوسيلةٍ فنيةٍ ليرقى بممدوحه ويذهب به بعيداً . (الحبوبي ١٩٨٦،ج٢: ٦٠٩)

ومن غزله الجميل قوله :

يحمرُ خدُّ ثراها من شقائقه كأنّما قَبّلَتْهُ الريـــــــــحُ فانجرحا

والاقحوانةُ ثغرٌ بات يرمقهُ للنرجسِ الغضِّ طرفٌ كلما انفتحا (الحبوبي،١٩٨٢،ج٢: ٥٢٠)

إنهُ غزل طريفٌ جميل ولا شك في ذلك؛ إذ اكتملت صورتهُ بالتشبيه والاستعارة المكنية، وقوله(٤):

وهو غصنُ النقاءِ أذا ما تثنّى وهلالُ السما أذا ما تبدّى(الحبوبي ١٩٨٦،ج٢: ٥٢٧)

إذ اعتمد الشاعر على أسلوب التشبيه البليغ في بناء صورته، قصد منها لفت النظر واستثارة العاطفة.

الخاتمـــــــــة

أتمننا البحث والحمد لله رب العالمين، وقد حاولنا عن طريقهِ أنَ نتعرف على أسلوب التشبيه في شعر السيد محمد سعيد الحبوبي بدراسة تطبيقية؛ هذا الشاعر الذي كانت له بصمة واضحة في القرن التاسع عشر الميلادي؛ بما امتاز به شعره من تنوع في الاغراض وصور فنية جميلة سواء أكانت في قصائده أمْ في موشحاته؛ وهذا ما كشفنا عنه بهذه الدراسة، فوجدنا أنّ تشبيههُ اعتمد على بعض الأدوات أو الحروف وأفعال التشبيه مثل الكاف، وكأنّ ويخال مع وجود تشبيهات بليغة إلاّ أنها قليلة إذا ما قورنت بتشبيهات الحروف أو الأدوات .

ومن الامور التي تُحسب للحبوبي أنّ تشبيهاته غالباً ما تقترن بفنون بيانية أخرى ولاسيّما الاستعارة فضلا على اقترانها بفن الجناس وهو من فنون البديع .

وفي كثير من التشبيهات نجدُ أنّ الشاعر السيد محمد سعيد الحبوبي لم يتجاوز التقليد أو طريقة الشعراء القدامى؛ بل سار على نهجهم في مقدمات قصائده أو خمرياته ؛ فكانت طللية أو غزلية أو خمرية ؛ وهذا لم يقلل من قيمة الحبوبي الشعرية المتميزة في عمق الدلالة ودقة التصوير؛ ويرى الباحث أن الشاعر الحبوبي أراد أنْ يثبت علوّ كعبه في الشعر وهو لايقل مقدرةً أو أهميةً عمن سواه من الشعراء السابقين او الذين عاصروه ؛ فكانت لهُ سمعةٌ طيبةٌ وترك بصمةً واضحةً عند الباحثين والدارسين الذين اهتموا بشعر القرن التاسع عشر الميلادي .

وختاماً نرجو أن نكون قد وفقنا في هذه الدراسة وكشفنا عن جانب مهم في شعر السيد محمد سعيد الحبوبي بدراسة أسلوب التشبيه .

وحسبُنا التوفيق من الله سبحانه وتعالى والحمد لله وبه نستعين

(الهوامش)

لمزيد من الافادة تنظر الكتب الاتية على سبيل المثال لا الحصر :

الكامل في اللغة والادب ،ج٢ص٥٤ وما بعدها ، المبرد ؛ ابو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ) ، بيروت ، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٥ .

كتاب ((الصناعتين : الكتابة والشعر)) ، ابو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق مفيد قميحة ، ص ٢٣٩ ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨١ .

العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، القيرواني ، ابو الحسن علي بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) ،تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج١ ، ص٢٥٦ ، ط٤ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٢ .

الاية(٤٤) / سوره هود/؛ "وقيل يا ارض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجود وقيل بعداً للقوم الظالمين"

بضه: رقيقة، الخود: الشابه، الوهج: حر النار، ينزو: يضطرب، المستطير: الهائج، الشجن : الحزين، السجسج : لا حر فيه و لابرد.

ينظر الديوان، ج١، على سبيل المثال الصفحات: ١٧٠،١٧١،١٧٦، وما الى ذلك من صفحات كثيرة في ديوان الحبوبي.

يشير الشاعر الحبوبي الى قول الخنساء الشاعرة المعروفة في اخيها "صخر" : (كأنه علم في رأسة نار).

فعلى سبيل المثال قول ابي صخر الهذري وهو شاعر إسلامي اموي: واني لتعروني لذكراك هزة

ينظر الديوان فعلى سبيل المثال ج١ص٤٠٤.

ينظر الديوان ج١ص١٠٥وما بعدها.

هذه القصيدة أرسلها من بغداد الى صديقه السيد عباس بن السيد محمد بن السيد جواد العاملي بجصان؛ ينظر الديوان هامش(*)ج٢ص٣١٩

المصادر

اولاً: القران الكريم .

ثانياً: المصادر.

اصول البيان العربي "رؤية بلاغية معاصرة" ، د.محمد حسين علي الصغير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦م .

الايضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني :أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الشافعي(ت٧٣٩هـ)،تحقيق وتعليق لجنة بالجامع الأزهر،القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، (لا.ت) .

الشعر العراقي الحديث مرحلة تطور،د.جلال الخياط، دار الرائد العربي، ط٢، بيروت ، ١٩٨٧م .

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، القيرواني : أبو الحسن علي بن رشيق (ت٤٥٦هـ)تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٤ ، بيروت ، دار الجيل ١٩٧٢م .

الفن والحياة، إيردل جنكتر، ترجمة احمد حمدي محمود، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣م .

الكامل في اللغة والأدب، المبرد:أبو العباس محمد بن يزيد(ت٢٨٥هـ)، بيروت، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٥م .

ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي ، إعداد عبد الغفار الحبوبي ، جزءان بمجلد واحد ، مديرية المطابع العسكرية ، ١٩٨٢م.

علم البيان، د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م

فصول في البلاغة ، د.محمد بركات حمدي أبو علي ، عمان ، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع ،١٩٨٣م .

في البلاغة العربية ، رجاء عيد ، القاهرة ، دار غريب للطباعة ، (لا.ت) .

قضايا النقد الادبي والبلاغة، د.محمد زكي العشماوي، الاسكندرية،دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧م .

كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، أأبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : مفيد قميحة ، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ،١٩٨١م .

نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر، محمد مهدي البصير،البركان، بغداد،١٩٥٩م.

وظيفة الادب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي ، د. محمد النويهي ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧م .